من حلب إلى فيينا... انتصار سورية قريب

إعداد وترجمة: ليلى زيدان عبد الخالق

بدأت أمس المحادثات الدبلوماسية في فيينا، في شأن الأوضاع السورية، ولوضع حلول ناجعة للحرب الدائرة منذ أكثر من أربع سنوات. بعدما عاث الإرهاب بمسمّياته كافة، تدميراً وقتلاً وذبحاً وخطفاً وما إلى ذلك من الجرائم بحقّ الإنسانية.

قالت موسكو كلمتها ولم تنتظر من الآخرين إلا اللحاق في ركب البحث عن الحلول الناجعة. بدأت ضرباتها الجوّية المجدية ضدّ مواقع «داعش» وأشباهه من التنظيمات الإرهابية، ولم تنتظر موافقة أميركا وحلفائها. دعت إلى محادثات فيينا، وهي تعلم علم اليقين أنّ الدول الأخرى ستحضر وإلا ستظهر أمام العالم بأنّها تدعم الإرهاب ولا تريد السلام للشعب السوري.

لكن محادثات فيينا لم تكن لتنطلق لولا التقدّم الميداني للجيش السوري مدعوماً بالطيران الروسي وحلفائه الذين يقاتلون معه جنباً إلى جنب. فالتقدّم في حلب كان هو الإشارة إلى انعقاد محادثات فيينا. ولو تلكّأ الجيش السوري قيد أنملة، لشاهدنا عهراً من «مملكة الرمال» أشدّ مما نراه اليوم. ولشاهدنا استكباراً أميركياً أقوى من الذي نراه اليوم.

من حلب إلى فيينا، انتصار سورية على الإرهاب يقترب، وكذلك انتصار روسيا الداعية إلى احترام مكانات الدول، يقترب على أميركا العاملة منذ عقود على التفرّد في القرار العالمي.

هذا أمس، أما قبله بأيام، فكان لسان حال الصحافة يتنبّأ. محور الحق الداعي إلى انتصار سورية على الإرهاب يتنبّأ بمحادثات فيينا، أما محور الشرّ الداعي إلى إسقاط سورية كدولة، تمهيداً لتقسيمها إلى دويلات طائفية، فكان لا يزال يشكّك في الضربات الجوّية الروسية، ويزرع الفتن عبر إقحام إيران كدولة تدعم سورية فقط للحفاظ على ما سمّي غرباً «الامتداد الشيعي».

بين أيدينا اليوم موضوع من ثلاثة تقارير، نترك للقارئ متعة التمييز بين المحورين المذكورين أعلاه.

معركة حلب ضرورية لروسيا

كتب بيبي إسكوبار لـ«Information Clearing House – RT»

مرةً أخرى، ومهما كان الذي يُتوقع لمستقبل سورية على جبهتيها السياسية والعسكرية، فإن ذلك يتوقف على المعركة الجديدة في حلب. المدينة وضواحيها، وتدفق اللاجئين الداخليين وإيواء ما يزيد على ثلاثة ملايين شخص حتى الآن.

إنها حلب دائماً وأبداً.

هاكم ما يحدث هناك الآن، على أرض الواقع... تسيطر دمشق، عبر الجيش السوري العربي على القسم الغربي من حلب. بينما يسيطر حزب الاتحاد الديمقراطي الكردي على الجزء الشمالي من المدينة – والذي يقاتل قوات تنظيم «داعش» بضراوة، وترى فيه إدارة أوباما حليفاً موضوعياً، ويثير – في الوقت عينه – اشمئزاز «السلطان» أردوغان.

منطقة شرق حلب هي المفتاح. يسيطر عليها «جيش الفتح»، بما فيه «جبهة النصرة»، أو «تنظيم القاعدة في سورية». إن التطور الأحدث والأكثر أهمية في معركة حلب، يكمن في أن الجيش العربي السوري - بمساعدة الروس - تمكّن من قتل قائد «جبهة النصرة» أبو سليمان المصري والمعروف أيضاً باسم محمود المغراوي، وهو مصريّ الجنسية وعلى رأس قائمة المطلوبين إلى العدالة في القاهرة منذ سنوات طويلة.

وإضافة إلى ذلك، فقد تمّ نقل سبعمئة من المقاتلين الشيعة العراقيين، بقيادة قائد «فيلق القدس» الإيراني قاسم سليماني، من اللاذقية إلى حلب، جنباً إلى جنب مع أكثر من 3000 من مقاتلي حزب الله الأشدّاء.

ما يتشكل الآن نوع من الهجوم من الناحية الجنوبية، حيث ستتلاقى جميع هذه القوى في المرحلة المقبلة لمسح التضاريس على طول الحدود التركية - السورية والتي غدت حالياً تحت السيطرة الفعلية للقوات الروسية في منطقة حظر الطيران.

إن الهدف الأقصى قطع طرق الإمدادات عل جميع القوى السلفية أو السلفية - الجهادية من «المتمردين المعتدلين» إلى «داعش». ويفسر هذا إصرار موسكو على محاربة جميع الأطراف الإرهابية، ولا يهمّ إذا ما كان «داعش» اللاعب الأساس داخل حلب وخارجها.

وبعد كلّ ذلك، نستنتج أن سورية بكاملها تخضع الآن لسيطرة الإدارة العملية والتكتيكية والاستراتيجية الروسية، هذا فضلاً عن استخدام مفاتيح التدخل الاستراتيجية الإيرانية.

إن التحالف الروسي - السوري - الإيراني - العراقي وحزب الله في سورية - والمرتبط أيضاً بالـ 4+1 مركز إنتل في بغداد - يقف أمام فرصة عظيمة لكسب المعركة المقبلة في حلب إذا ما استوفى الشروط الثلاثة التالية:

- تنسيق الغطاء الجوي الروسي مع الإنتل في كافة العمليات على الأرض.

- الدعم الشعبي لسكان الضواحي في حلب، معظمهم من رجال الأعمال الذين يستثمرون في دمشق.

- القوات البرّية ذات الخبرة القوية والبالغ عددها 15000 على الأقلّ، والمنتشرة على الطرقات وعلى مداخل العراق ومخارجه ومراكز حزب الله. ومن المتوقع، أن يتمخض عن هذا الواقع تحالف آخر من الصعب بمكان، أن يتواءم والطريقة التي تتبلور فيها المعركة. فالسلطة التي تتحكّم بمحطة حلب الرئيسية، على بعد 25 كيلومتراً شرق المدينة، هو «داعش».

إن المأساة السورية حالة جنونية، فضلاً عن وجود اتفاقية غير رسمية بين دمشق و«الخلافة الوهمية»؛ يسيطر هؤلاء الحمقى على 60 في المئة من مقدّرات الكهرباء، بينما تنال الحكومة 40 في المئة فقط. ومن البديهي أن يحتاج جميع قاطعي الرؤوس هؤلاء، إلى تلك الطاقة.

فما الذي فعله «التحالف الانتهازي المراوغ» - الذي يتضمن تركيا، السعودية وقطر جنباً إلى جنب مع الولايات المتحدة - هذا التحالف الذي يقاتل «داعش»؟ حسناً، قصفوا محطات توليد الكهرباء في حلب، والبنى التحتية المدنية لسورية - ما أعاد إلى أذهاننا بشكل صارخ وصادم الجريمة التي حصلت عام 2003 - والتي راح ضحيتها عدد غير قليل من الشعب السوري الذي يعتزّ بكونه استثنائياً.

ما قد تشهده ساحات المعارك داخل حلب وحولها في الأسابيع القليلة المقبلة سيكون ضرورياً لتحديد الجبهة الدبلوماسية. وكما يبدو، فإن بشار الأسد تلقى رسالة موسكو، وهو مستعدّ لمناقشة التعديلات الدستورية، وجاهزٌ لإجراء انتخابات نيابية ورئاسية. غير أن هذا الرباعي زائد واحد يحتاج إلى وقائع فعلية على أرض المعركة.

وبعدما تحدث وزير الخارجية الأميركي جون كيري مع نظيره الروسي سيرغي لافروف، لوحظ تغيير جذريّ في اللهجة الدبلوماسية والسياسية؛ إن أيّ حل سياسيّ سيعني تدخلاً مباشراً من دمشق، كما من «المعارضة الوطنية».

لا يتمتع «الجيش السوري الحرّ» بالقدرة على فهم مغزى هذه الرسالة جيداً. وقد طلب لافروف من موسكو مساعدتهم بشكل واضح وعلني - حتى بعدما سُلّحوا من قبل تركيا والأردن لمقاتلة دمشق - طالما أنهم يقاتلون ضدّ تنظيم «داعش». وكما هو متوقع، فقد ازدرى هؤلاء «الثوار المعتدلون/الوطنيون» اقتراح لافروف.

إلى جانب ذلك، تتجلى سخافة دبلوماسية أخرى بوضوح في غياب إيران عن طاولة المفاوضات - بسبب نوبات البارانويا الحادّة التي أصابت آل سعود. فالجنرالات والمستشارون الإيرانيون يشكلون مكوّناً أساسياً للعمليات البرية، عبر اتباع تحليل إنتل الأرضي، والإطار الاستراتيجي الكامل في سورية.

وعلى العكس من ذلك، فإن واشنطن والرياض لا تزالان مصرّتين على تزويد هؤلاء «المتمردين المعتدلين» غير المرئيين بالدعم غير المحدود، خصوصاً بعد لقاء كيري والملك سلمان في الرياض؛ فوزارة الخارجية - المدمنة دوماً على التشويق، لم تحدّد ماهية «الدعم» وسبله. وغنيّ عن القول، أن كلّ هذا إنما يعني مزيداً من تدريبات وكالة الاستخبارات الأميركية ومزيداً من الصواريخ المضادة للدبابات، والتي سيكون من الصعب للغاية توجيهها ضدّ «داعش».

وأخيراً، لا بدّ من رقصة باليه دبلوماسية للتواصل في هذه الشأن في وقت لاحق وقريب... أي في الوقت الذي ستلتقط فيه معركة حلب الحاسمة أنفاسها.

روسيا تستعرض طاقاتها

كتب رضا حرب لـ«Moon of Alabama» (مركز دراسات الأمن العالمي والجيوسياسي):

أطلقت البحرية الروسية أربع سفن حربية و26 صاروخاً على مواقع لإرهابيي تنظيم «داعش» في سورية، وذلك حسبما أعلن وزير الدفاع الروسي سيرغي شويغو. إذ أُطلقت هذه الصواريخ من بحر قزوين، من دون أن تُسجل إصابات مدنية على رغم تدمير أحد عشر موقعاً عسكرياً للمجموعات المتطرّفة.

ولهذه الضربات الجوية الروسية أهداف متعدّدة:

إن تدمير بعض مواقع «داعش» في سورية - بفضل تزويد روسيا، من خلال الدعم الجوّي المكثف، الجيش السوري في هجماته ضدّ حماه، والالتزام الكامل باستهداف أكبر عدد ممكن من مواقع «داعش» - أثبت أن روسيا يمكنها وستشارك في المعركة، إذا ما هوجمت قواتها في سورية - وفي هذا تحدٍّ واضح للولايات المتحدة وحثّها على اتخاذ إجراءات أكثر جديّة ضدّ تنظيم «داعش».

وتفاخر الولايات المتحدة بأنها نفّذت الآلاف من الطلعات الجوية ضدّ «داعش»، غير أن هذا التباهي أثبت أن 20 في المئة من هذه الطلعات الجوّية شملت إطلاق سلاح وصواريخ ضدّ أهداف طفيفة. إن تدمير معاقل «داعش» بوساطة سلاح موجّه لا يعدّ قتالاً حربياً، لكنه مكلفٌ للغاية. وقد يلاحظ أحدهم بعض الاختلافات بهذا الخصوص: ففي «تل أبيب»، لاحظ المحللون العسكريون «الإسرائيليون» أن الضربات العسكرية الروسية الأولى في سورية تبدو أكثر عدائية من تلك التي قادها التحالف الأميركي.

لا شكّ أن القوات الروسية أصبحت الآن على يقين تام بأن كلّ الأصول والاحتياجات اللازمة لها في سورية، قد أصبحت في متناول اليد.

منع تنفيذ مخطط سابق للناتو يقضي بإنشاء منطقة حظر طيران - توليد الذكاء المتفوق واللازم لتدمير متمردي القاعدة فضلاً عن أولئك المنتمين إلى تنظيم «داعش» - السماح بالتوصل إلى تسوية النزاعات على شروط الحكومة السورية وحلفائها.

وعلى رغم الضوضاء الصادرة عن السياسيين الأميركيين الداعمين لإنشاء منطقة حظر جوّي، فإن هذه المسألة أصبحت خارج سياق التساؤلات في الوقت الحالي. فالروس قادرون أيضاً على خلق هذه المنطقة في سورية متى شاؤوا ذلك. كذلك، فإن طائرات استطلاع أميركية من دون طيار تمّ اعتراض طريقها في سورية. كما أنه أعلن عن إرسال شحنات إضافية من الأسلحة الميركية إلى بعض الأكراد وإلى التحالف العربي الجديد والذي يضمّ مجموعة من اللصوص لا يمكن الاعتماد عليهم، ولا تبذل أدنى مجهود لتحرير الرقة أو أي من المناطق الأخرى ذات التأثير. لن يقاتل الأكراد خارج حدود أراضيهم، وسيستمرّ اللصوص في بيع الأسلحة، والسفر إلى ألمانيا، بصفة «لاجئين».

أما المتمرّدون الآخرون «المعدتلون نسبياً»، والذين سلّحتهم الولايات المتحدة، فقد باعوا هذه الأسلحة إلى تنظيم «القاعدة». ويعلم الجميع الآن أن حوالى 80 في المئة من الأسلحة التي قدّمتها الولايات المتحدة إلى سورية انتهت بأيدي الجهاديين. وإن استئناف انتهاج مثل هذه البرامج لن يغير من النمط المتبع ولن يكون من الممكن تبريره بعد الآن.

استطاعت الولايات المتحدة بالتعاون مع حلف شمال الأطلسي إشاعة الكثير من الفوضى والضوضاء عندما حاولت طائرتان روسيتان انتهاك المجال الجوي التركي (لاختبار أجهزة الرادار التركية وتوقيت ردود فعلها). إلا أن 11 دولة داخل التحالف بقيادة الولايات المتحدة تنتهك بانتظام النظام الجوي السوري مستنفذةً قوة «داعش»، ومع ذلك، لا نرى أيّاً من القوى الغربية تشكو حصول ذلك. سيكون هناك الآن المزيد من المحادثات بين روسيا وتركيا، «إسرائيل» والولايات المتحدة لتجنب تكرار مثل هذه الحوادث. وقد يقترح الروس القول للأطراف الأخرى - بكلّ ببساطة: «جل ما نريده أن تبقوا بعيداً».

يعرض الروس على الولايات المتحدة تحالفاً أوسع من مجرد تولي زمام أمور المجال الجوي. غير أن الولايات المتحدة ترفض ذلك بشدة. إذ إن تحالفاً مع روسيا ضدّ تنظيم «داعش» لن يتلاءم ومخططات الولايات المتحدة في تقسيم سورية والعراق إلى كيانات عدة أصغر بقيادة الولايات المتحدة. فالعراقيون، كما السوريين، سعوا وراء تحقيق روسيا لدور أكبر من المنطقة. فالتحالف المتمثل بالدول الأربع 4+1 أي روسيا، العراق، سورية، إيران وحزب الله، هو من يقود القتال ضدّ تنظيم «داعش».

خسرت الولايات المتحدة اللعبة... إذاً، عليها إما أن تقبل بالعرض الروسي المطروح أو أن تترك الطاولة... ببساطة.

إيران وحضورها في سورية

كتبت مجلة «ناشيونال إنترست» الأميركية:

تجمعت القوات الجوية الروسية، الجيش العربي السوري وحزب الله اللبناني والميليشيات المدرّبة من قبل الحرس الثوري الإيراني، لتشكيل قوة كبيرة في سورية، كجزء من حملة متعدّدة الجبهات لتقويض المكاسب التي حققتها قوى «المعارضة السورية» خلال عام 2015. وتهدف هذه القوة إلى استعادة حلب (ثاني أكبر المدن السورية).

يبدو الدور الروسي الجديد في استهداف المعارضة السورية واضحاً للعيان، فيما من المؤكد أن الطبيعة الدقيقة للتصعيد الإيراني على أرض الواقع لا تزال تشكل لغزاً مع آثار كبيرة محتملة.

أرسلت إيران ما يزيد على ألفي مقاتل من الميليشيات الإيرانية والمدعومة من إيران إلى الخطوط الأمامية في الأسابيع الأخيرة. تواصل طهران التأكيد بشكل رسمي أن قواتها في البلاد هي عبارة عن مستشارين، لا على شكل قوات برية بالمعنى التقليدي. من المعلوم أن إيران قد تورطت في الحرب الدائرة في سورية منذ عام 2011: القادة ذوو الخبرة وموظفون متخصصون من قوة القدس التابعة للحرس الثوري الإيراني، قوات برية وأفرع الباسيج، الخبراء في الحروب بالوكالة ومكافحة التمرّد والعمليات شبه العسكرية، كلّ هؤلاء أعادوا بناء قوات الأمن السورية، وتحويلها إلى جيش ميليشيات تقليدي وهجين، مضافاً إليه ميليشيات حزب الله اللبناني والميليشيات الشيعية الأخرى من أفغانستان والعراق.

ومع ذلك، فإنه من النادر أن يرضخ الإيرانيون للضغط، ويبادروا إلى الضغط على الزناد لبدء المناورة في أرض المعركة بأنفسهم، بل هم ينزعون إلى ترك الآخرين يقومون بالقتال والموت نيابة عنهم.

أما قوات الحرس الثوري الجديدة، فيجدر بنا إدراجها في السياق عينه. فطهران وموسكو تحتاجان بالتأكيد إلى أجنحة جديدة أكثر حداثة من أجل قيادة وتقديم دفعة جديدة للنظام السوري في حلب وأماكن أخرى. غير أن التقارير لا تزال تُظهر أن هذه القوات من الحرس الثوري تشارك أيضاً في القتال المباشر. ويؤكد ذلك، الارتفاع الأخير في معدل إعلانات الوفيات في صفوف قادة الحرس الثوري والباسيج في سورية، والتي ترتبط بشكل واضح بوحدات القوات البرية التي تظهر أن النظام الإيراني يتصرف بالمزيد من الأريحية في الاعتراف بجنوده الذين سقطوا وربما يشير إلى أن طهران أصبحت على استعداد لوضع المزيد من جنودها على طريق الموت والأذى.

يشير القادة في طهران أيضاً إلى هذا التحول. وقد لمّح وزير الخارجية جواد ظريف أن دور إيران في سورية قد تغير على رغم تمسكه بالزعم بأن أفراد الجيش الإيراني لا يزيدون عن كونهم مستشارين.

وأشار عدد من كبار المسؤولين في إيران أن بلادهم يمكن أن توسع من نطاق وجودها العسكري في سورية فيما لو طلبت منها دمشق أو موسكو ذلك.

لكن، لماذا تعدّ مشاركة القوات الإيرانية في القتال المباشر في سورية أمراً جديراً بالاهتمام؟ أولاً، كونه يمثل تطوراً تاريخياً وربما تغيراً في العقيدة العسكرية. وللمرة الأولى منذ الحرب بين إيران والعراق في الثمانينات، فإن وحدات الحرس الثوري تتصرف باعتبارها قوة تدخل سريع بدلا من المهام الاستشارية والتدريبية والإشراف على تجهيز وبناء الوكلاء. حتى لو جاء هذا التحول بدافع الضرورة، يجدر بباقي دول الشرق الأوسط القلق حول كيفية قتال القوات الإيرانية الصلبة، والتي هي دائماً على استعداد لخوض المعارك عبر الحدود المفتوحة وليس فقط عبر وكلاء في الظل.

ثانياً، يشير هذا الأمر إلى عمق المشاكل التي تواجهها طهران ودمشق في تأمين قوات كافية من أجل الدفاع عن الأراضي السورية. فمن المحتمل افتراض أن إيران لا ترغب في إهدار نخبة مقاتليها من الحرس الثوري إلا في حال عدم وجود خيار آخر. هذا الانتشار المحدود نسبياً للحرس الثوري يمكن أن يكون عملية اختبار لتصعيد أكبر إذا لزم الأمر.

ثالثاً، قد يعكس هذا الأمر جانباً من المتطلبات التشغيلية والاستراتيجية للتدخل الروسي. فعلى المستوى العملياتي، يبدو أن بوتين يصرّ على دخول قوات إيرانية جديدة للمساعدة في تأمين انتصار على الأرض قبل دخول قواته الجوية.

أما استراتيجياً، فمن المرجح أن روسيا ترى نهاية مختلفة عن تلك التي تراها إيران. فقد تكون روسيا أكثر استعداداً للتضحية بالأسد، أو بدمشق، أو حتى بالموقف الإيراني المتصلب ضدّ «إسرائيل» في مرتفعات الجولان، طالما يضمن ذلك تسوية تحافظ على مصالح بوتين وقاعدته البحرية على طول ساحل البحر المتوسط. وقد يشكل التصعيد الإيراني استجابة للمخاوف من فقدان السيطرة الاستراتيجية لمصلحة روسيا ومحاولة لضمان النفوذ الإيراني في أي مفاوضات.

لكن، الأمر الذي يبدو أكثر أهمية بالنسبة إلى قائد «قوة القدس» قاسم سليماني والمرشد الأعلى الإيراني آية الله علي خامنئي، يكمن في التساؤل حول طبيعة هذا الانتشار الجديد، ومدى قدرته على تلبية توقعات بوتين وتحويل دفة الأمور بالنسبة إلى الأسد. يتواجد الحرس الثوري فعلياً في أرض غير واضحة المعالم. وإذا ما استمرّ القتال في حلب أو غيرها من الأماكن لأكثر من بضعة أشهر، فمن يدري ما ستكون الخطوات التالية التي ربما أن تتخذها إيران؟